يحي الغزال: سفير الغرام في بلاط ملك المجوس*

أ.د. طارق منصور

أستاذ تاريخ العصور الوسطى-جامعة عين شمس

جمهورية مصر العربية

tarekmansour@art.asu.edu.eg

الملخص

كان الشاعر الأندلسى يحي بن الحكم البكري الجيَّاني المعروف بالغزال (156-250هـ)،[1] شاعراً متمكناً من لغة الشعر ولسان العرب، تعكس أشعاره ولعه بالجمال والغرام، وذكاءً ورشاقةً في العبارة. وبهذا السمات تمكن من إتمام مهمته الدبلوماسية بنجاح إلى بلاط ملك المجوس[2] شمالاً عام 230هـ. والناظر إلى سيرته الذاتية يكتشف

---

* بحث قدم للندوة الدولية "التاريخ الاجتماعي والاقتصادي وتاريخ الذهنيات بالمغرب والأندلس: مقاربات ورؤى متقاطعة"، تطوان، المملكة المغربية، 18-19 أبريل 2018م. أعمال مهداة إلى المؤرخ أ.د. إبراهيم القادري بوتشيش.

[1] **يحيى بن حكم البكري الجياني:** ينسب إلى مدينة جيان، وهي مدينة جميلة بالأندلس، وصفها أبو عبدالله الحميري في كتابه فقال" :مدينة بالأندلس بينها وبين بياسة ستون ميلا، وهي كثيرة الخصب، رخيصة الأسعار، كثيرة اللحوم والعسل، ولها زائد على ثلاثة آلاف قرية، كلها يربى فيها دود الحرير، وبها جنات وبساتين ومزارع، وغلات القمح والشعير والباقلاء وسائر الحبوب، وعلى ميل منها نهر بلون، وهو نهر كبير، عليه أرحاء كثيرة جدا، وبها مسجد جامع، وعلماء جلة. انظر: الحميرى، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق/ إحسان عباس، بيروت 1980، ص 183؛ المقدسي البشاري، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، نشره ديجويه، ليدن 1906، ص 234-235؛ شعبان محمد مرسي، "قراءة في شعر يحي بن حكم الغزال"، مجلة دراسات إسلامية، مج 49، عدد 3(2014)، ص 167.

[2] **ملك المجوس:** هناك ثلاثة أراء حول ماهية ملك المجوس وكينونة بلاده. فليفي بروفنسال ينكر أساساً خروج يحي الغزال إلى اسكيندنافيا شمالاً، ويعتبر أن هذه السفارة هي نفسها سفارته إلى الإمبراطورية البيزنطية زمن الإمبراطور ثيوفيلوس في عام 840/839م. ويرى ألان أنه أرسل إلى ملك من ملوك الشمال ويدعي Turgeis. أما د. عبد الرحمن الحجي فيرى أنه أرسل إلى الملك الدانماركي هوريك الأول .Horic I (d. 854). وتأخذ المؤرخة ساره بونس- صانز برأي بروفنسال. راجع: عبد الرحمن علي الحجي، العلاقات الدبلوماسية الأندلسية مع غرب أوروبا، أبو ظبي 2004 ، ص 244-247؛ W. E. D. Allen, *The Poet and the Spae-Wife. An attempt to reconstruct al-*

للوهلة الأولى أنه كان محل ثقة الأمير الأموي عبد الرحمن الثاني (206–238 هـ/822–852م) في الأندلس،[3] مما أهله لأن يكون سفيراً خاصاً له إلى القسطنطينية،

Ghazal's embassy to the Vikings, London 1960, pp. 29-35; S. M. Pons-Sanz, "Whom did Al-Ghazāl Meet? an Exchange of Embassies between Arabs from Al-Andalus and the Vikings," in: A. Finlay and A. Wawn, (eds.), *Saga Book*, Vol. XXVIII, London 2004, pp. 6, 23.

ولعل هناك عند ابن دحية (انظر: عمر بن حسن بن دحية أبو الخطاب، المطرب من أشعار أهل المغرب، تحقيق/ إبراهيم الإبياري و حامد عبد المجيد و أحمد أحمد بدوي، مراجعة/ طه حسين، القاهرة 1954، ج 1، ص 140–141. انظر أيضاً: عبد الرحمن علي الحجي، العلاقات الدبلوماسية الأندلسية مع غرب أوروبا، ص 235 وما بعدها) ما يدعم راي د. الحجي القائل بأنه كانت هناك سفارتان قام بهما الغزال، الأولى إلى القسطنطينية والثانية إلى بلاد المجوس شمالي أوروبا؛ حيث ترد عبارة ملفته للنظر عند ابن دحية يقول فيها أن المجوس "*فرأوا العجب العجيب من أشكالهم وأزيائهم. ثم إنهم أنزلوا في كرامة، وأقاموا يومهم ذلك، واستدعاهم بعد يومين إلى رؤيته، فاشترط الغزال عليه ألا يسجد له، ولا يخرجهما عن شيء من سنتهما، فأجابهما إلى ذلك*"؛ أي أن ملابس يحي الغزال ورفيقه إلى بلاد المجوس كانت ملفتة للنظر للغاية؛ وهذا ما كان ليحدث مع البيزنطيين، الذين اعتادوا على هيئة العرب وأزيائهم، بما لا يشكل شيئاً ملفتاً للنظر لهم نهائياً. وتكفي نظرة واحدة لمخطوطة يوحنا سكيلتزس المهمة لنتعرف من خلال منمنماتها على صورة وهيئة العرب في الذهنية البيزنطية، من خلال اللوحات الفنية البديعة الواردة فيها. من ناحية ثانية، فإن سفارة الغزال إلى القسطنطينية قد أكسبته معرفة بمراسم استقبال الملوك للمسلمين، الذين دائما كانوا يحرصون على عدم السجود أمام الملك. وهذا أهل يحي الغزال أن يشترط مسبقاً على ملك المجوس ألا يسجد له، أو يُجبره الملك على شيء يتنافى مع عقيدته.

[3] **الأمير عبد الرحمن الثاني بن الحكم:** كان أعظم الأمراء الأمويين في الأندلس، حيث عمر عمارات كثيرة، وشيد أبنية فخيمة؛ وصد الغزاة، وحارب الفرنجة، ووصل ملوك الروم والمجوس، وأخمد الفتن، وشن الغارات؛ كما كان مولعاً بالشعر والأدب والغناء، حتى صارت قرطبة وبلاطها مقصداً للأدباء والموسيقيين والمغنيين والعلماء والفقهاء الذين كان يسبغ عليهم رعايته. كما يمكن القول أيضاً أن قرطبة في عهده بذلت جهوداً غير تقليدية في استجلاب مبادئ وممارسات المسلمين في المشرق. انظر: ابن القوطية، كتاب تاريخ افتتاح الأندلس، تحقيق/ إبراهيم الإبياري، القاهرة–بيروت 1989، ص 75–85؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، تحقيق/ عمر عبد السلام تدمري، بيروت 2012، ج6، ص 60، 68، 80–81، 93–94. انظر أيضا: جوزيف رينو، الفتوحات الإسلامية في فرنسا وإيطاليا وسويسرا في القرون الثامن والتاسع والعاشر الميلادي، ترجمة/ إسماعيل العربي، الجزائر 1984، ص 144–145. انظر أيضا: Abdulrrahman A. El-Hajii, "Andalusian Diplomatic Relations with the Franks during the Umayyad Period," *Islamic Studies*

عاصمة الروم (البيزنطيين)، زمن الإمبراطور ثيوفيلوس Theophilus (829–842م)، ثاني أباطرة الأسرة العمورية، لتقوية العلاقات بين الأندلس وبيزنطة في مواجهة الدولة العباسية في المشرق الإسلامي زمن المأمون والمعتصم، والتي شكلت عدواً مشتركاً لهما؛[4] ويأتي نجاحه في السفارة إلى القسطنطينية عام 225هـ/839–840م وما دار فيها إلى تكليفه بسفارة تالية إلى بلاد المجوس شمالاً عام 230هـ/844م؛[5] كما أسماها الكُتاب

6/1(1967), 27 ff.; E. R. F. Cardoso, *Diplomacy and oriental influence in the court of Cordoba (9th-10th centuries)*, MA dissertation, Faculty of Arts, University of Lisbon 2015, pp. 36-90; D. G. König, "Charlemagne's "Jihād" Revisited: Debating the Islamic Contribution to an Epochal Change in the History of Christianization," *Medieval Worlds* 3(2016), 17; A. Christys, "From *gihād* to *diwān* in two providential Histories of Hispania/al-Andalus," in: M. di Branco and K. Wolf (eds.), *Guerra Santa e Conqiste islamiche nel Mediterraneo (VII-XI secolo)*, Roma 2017, 88.

[4] محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، القاهرة 2001، ج1، ص 283.

[5] **بلاد المجوس:** كان مصطلح المجوس يطلق بين الكتاب العرب على كافة الأمم الشمالية الأوروبية، أو بمعنى أدق على الفايكنج الذين كانوا يشنون غارات مستمرة على الأندلس وجزائرها. كما كانوا يسمونهم أيضاً بالأرْدُمانيين. انظر: أحمد بن محمد بن عذارى المراكشي، البيان المغرب في اختصار أخبار ملوك الأندلس والمغرب، تحقيق/ بشار عواد معروف و محمود بشار عواد، تونس 2013، ج2، ص101؛ ابن حيان الأندلسي، المقتبس في أخبار بلد الأندلس، تحقيق/ صلاح الدين الهواري، بيروت 2006، ص 69؛ A. Christys, "The Vikings in the South through Arab eyes," in: W. Pohl, C. Gantner, and R. Payno (eds.), *Visions of Communities in the Post-Roman World*, Ashgate 2012, 4. For more details about this name see esp. 2-15.

ويعتبر اليعقوبي من الجغرافيين المسلمين الأوائل الذين قدموا ملاحظات هامة حول أصلهم، حيث يقول أن المجوس يقال لهم الروس؛ وهنا إشارة إلى سكان شبه جزيرة اسكيندناوة عامة، حيث كانت أفواج الروس قد خرجت في القرن التاسع من هناك متجهة شرقاً نحو مناطق كييف ونهر الفولجا، للتجارة والكسب. راجع: أحمد بن إسحاق بن جعفر بن وهب بن واضح اليعقوبي، كتاب البلدان، بيروت 1422 هـ، ص 194. راجع أيضا: S. Brink, "Who Were the Vikings?," in: S. Brink and N. Price (eds.), *The Viking World*, Oxon-New York 2008, 4-10.

ويشير القزويني إلى أن المجوس كانوا يتخذون من أيرلندا قاعدة لهم؛ حيث من المعروف لنا أن جماعات الفايكنج كانت قد غزت الجزر البريطانية مراراً. (القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، بيروت د.ت.، ص 577). أخيرا فإن الإدريسي قد أشار إلى بلاد المجوس محددا إياها أنها ضمن شبه جزيرة اسكيندناوة، مه بيانه للممالك المعلومة للمسلمين في زمانه، حيث يسمى الدانمارك فنمارك...التي يشير إلى أنه ليس بها بلاد عمارة إلا مدينة أبورة ومدينة قلمار، وهما مدينتان كبيرتان لكن البداوة عليها بادية

المسلمون نظراً لأن أهلها كانوا يكثرون إيقاد النيران،[6] أو لأنهم كانوا آنذاك لا يزالون على الوثنية.[7]

وتعكس الروايات التي وصلت إلينا كيف وقع يحيى الغزال في أسر جمال الملكة نُود Nud زوجة ملك المجوس،[8] التي استمرأت عباراته الرقيقة وشعره الآخاذ، فصار

والشقوة على أهلهما غالبة، وبهما من الأقوات المقدرة أقل مما يكفيهم والأمطار عليها قائمة دائبة. كما يشير إلى أن أرض المجوس أكثرها خلاء وبرار وقرى عامرة وثلوج دائمة وبلادها قليلة. (انظر: الإدريسي، نزهة المشتاق في إختراق الأفاق، القاهرة د.ت.، ج2، ص 953–956).

[6] كان من الطبيعي أن يشعل النورمانديون النيران طوال اليوم لأجل التدفئة في جو بلادهم القارس البرودة، حيث يكسو الجليد شبه جزيرة اسكندیناوة معظم أيام السنة. ونظراً لأن العرب لم يعتادوا هذا المناخ، فلم يدركوا ماهية إشعالهم للنيران. ومن ثم اعتقد المسلمون أنهم من المجوس الذين يعبدون النار، رغم أن ملكة الدانمرك نُود–فيما سيرد– تشير أثناء حديثها للغزال إلى أن المسيحية انتشرت بين المجوس في بلادها.

[7] انظر: ديوان يحي بن حكم الغزال، جمع وتحقيق/ محمد رضوان الداية، بيروت–دمشق 1992، ص 16؛ كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي، القاهرة 1963، ج1، ص 135–136؛ كارل بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، ترجمة/ عبد الحليم النجار، القاهرة 1977، ج1، ص 104؛ شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، ج8، عصر الدول والإمارات: الأندلس، القاهرة 1989، ص 230 وما بعدها.

[8] **نُود أم تُود؟:** يرى شعبان مرسي وليفي بروفنسال (شعبان مرسي، "قراءة في شعر يحي بن حكم الغزال"، ص 172؛ E. L. Provencal, "Un échange d'ambassades entre Cordoue et Byzance au IX e siècle," *Byzantion* 12(1937), 1-24؛ منشور بالعربية في: ليفي بروفنسال، الإسلام في المغرب والأندلس، ترجمة/ السيد محمود عبد العزيز سالم و محمد صلاح الدين حلمي، راجعه/ لطفي عبد البديع، الإسكندرية 1990، ص 113) أن اسم الملكة الدانماركية نُود Nud، هو تصحيف لتود Tud، وأن كلاهما يشير إلى الإمبراطورة البيزنطية ثيودورا، التي كان العرب يعرفونها بتود. غير أن الأمر ربما التبث عليهما، فقد حدث خلط عند المؤرخين المسلمين بين تود و نود، وربما كان ذلك من فعل نساخ المخطوطات. فاسم ثيودورا، التي يعرفها العرب باسم تود، اسم مركب ويعني هبة الله، وهو مكون من المقطع "ثيو" من ثيوس θεος، أي الله أو الرب، والمقطع "دورا" δορα، أي هدية أو هبة أو عطية. ويبدأ الاسم في اليونانية القديمة بحرف الثيتا Θ الذي يقابله الثاء في العربية. وظني أن تود يشير إلى ثيودورا، ملكة بيزنطة، لكون أصله يوناني، لغة بيزنطة؛ أما نود فهو اسم اسكيندنافي خالص تماماً لملكة المجوس؛ حيث نقرأ أسماءً اسكيندنافية في الأساطير الإسكندنافية القديمة ذات مقطع قصير للغاية، منها: ثود، ثوند، نيدي، لود، أود، أودن، أوين، ناين وغيرها. انظر: سنوري شتورلسن، سنورا إدا، ملحمة آيسلندية، ترجمة/ موسى الحالول، أبو ظبي

الغزل على لسانه كلما رآها، فاعتادت على رؤيته –رغبة منها– كل يوم طوال مدة إقامته ببلاد ملك المجوس والاستماع إلى حلو كلامه، حتى عرضت عليه جوارٍ لها ليستحسن منهن ما يشاء. إلا أنه أبى، وتعلل بأن عشقه لجمال نُود يفوق كل جارية؛ فتزداد ولعاً به، وتجزل له العطاء كلما ذهب إلى قصرها أو انصرف.

وتسلط هذه الورقة الضوء ليس فقط على براعة يحيى الغزال في الدبلوماسية لتحقيق مقاصد الأمير عبد الرحمن الثاني بإتمام الوصل مع دول الجوار سواء مع مملكة الدانمرك شمالاً أم مع الإمبراطورية البيزنطية شرقاً؛[9] بل أيضاً على ما كان يملكه يحيى الغزال من حلاوة اللسان وذكاء العبارة ورشاقتها ودقة معانيها واستخدامه للغزل وسيلة دبلوماسية لتحقيق مآربه.

Abstract

The Andalusian poet Yaḥya b. al-Ḥakam al-Bakrī al-Jayyanī, known as al-Ghazāl (156-250 AH), was well-versed in the poetry and Arabic. With this characteristic, he was able to complete his diplomatic mission to the court of the *Magūs* King in the north of Europe in the year 230 AH .

One who looks at his biography discovers at first glance that he was trusted by the Umayyad Amīr ʿAbd al-Raḥmān II (206-238 AH/822-852 AD) in Andalusia, which qualified him to be a special ambassador for him to Constantinople, at the time of Emperor Theophilus (829-842 AD), the second emperor of the Amorite dynasty, to strengthen relations between Andalusia and Byzantium in the face of the Abbasid Caliphate at the time of al-Ma'mun and al-Mu'tasim, which formed a common enemy to both. His success in the embassy came to Constantinople in the year 225 AH/839-840 AD, and what took place there to assigning him a next embassy to

---

2013، ص 48، 49،62–، 175. وعليه فإن تسمية ابن دحية لملكة الدانمارك بنُود قد تكون صحيحة، وتشير إلى حقيقة سفارة ثانية للغزال غير سفارة القسطنطينية، كما سيرد. راجع أيضا: Cardoso, *Diplomacy and oriental influence in the court of Cordoba*, 77; Allen, *The Poet and the Spae-Wife*, 37-42.

[9] عن نص رسالة الأمير عبد الرحمن الثاني إلى الإمبراطور البيزنطي ثيوفيلوس انظر: ليفي بروفنسال، الإسلام في المغرب والأندلس، ص 115–118؛ Cardoso, *Diplomacy and oriental influence in the court of Cordoba*, 39-40.

the country of the Magūs in the north of Europe in 230 AH/844 AD.

The narrations that have reached us reflect how Yaḥya al-Ghazāl was admired with the beauty of Queen Nud, the wife of the King of the *Magūs*; so that his kind words and captivating poetry to Nud continued. Because his verses were attractive, the Queen offered him a female maidservant, so that he could approve of them whatever he wanted. However, he refused and reasoned that his love for the beauty of Nod surpassed every slave-maid. She became fond of him and gave him abundantly, whenever he goes to her palace or leaves.

This paper highlights not only the ingenuity of Yaḥya al-Ghazāl in diplomacy to achieve the purposes of Amir ʿAbdul Raḥmān II by completing the relations with neighboring countries, whether with the Kingdom of Denmark in the north or with the Byzantine Empire in the east. But also, on what Yaḥya al-Ghazāl had of the sweetness of the tongue, the cleverness of the phrase, and the accuracy of its meanings, and his use of flirtation as a diplomatic means to achieve his goals.

المقدمة

يصف ابن سعيد المغربي يحي الغزال بقوله:[10]

"شاعر أديب حكيم، أرسله عبد الرحمن الأوسط إلى صاحب القسطنطينية رسولاً،[11] وحصل له أنس مع السلطان وزوجته، فجاءته ليلة بخمر، وقالت له اشرب هذه مع ابني

---

[10] ابن سعيد المغربي، المغرب في حلي المغرب، تحقيق/ شوقي ضيف، ج2، القاهرة 1955. سلسلة ذخائر العرب 10، ص 56–57.

[11] يشير المقري إلى أن الإمبراطور البيزنطي ثيوفيلوس هو من بادر بمراسلة الأمير عبد الرحمن الثاني سنة خمس وعشرين بهدية مع رسول له يدعى قرطيوس، يطلب مواصلته ويرغبه في ملك سلفه بالمشرق من أجل ضيق به المأمون والمعتصم، حتى إنه ذكرهما له في كتابه له وعبر عنهما بابني مراجل وماردة (والدتيهما)، فكافأه عبد الرحمن عن الهدية، وبعث إليه يحي الغزال، من كبار أهل دولته، وكان مشهوراً في الشعر والحكمة، فأحكم بينهما الوصلة، وارتفع لعبد الرحمن ذكر عند منازعيه من بني العباس. وكان هدف الرسالة مناشدة الأمير عبد الرحمن الأوسط لمؤازرة بيزنطة في حروبها ضد العباسيين شرقاً، وضد مسلمي كريت. غير أن الأمير الأموي لم يستطع مساعدته بصورة مباشرة نظرا لانشغاله بقمع التمردات الداخلية التي نشبت في عهده، والغزوات الخارجية التي جاءت على

هذا، وكان غلاماً بديع الجمال. فذكر أن ذلك لا يجوز في دينه، ثم ندم، وقال:[12]

وأغْيدَ لينِ الأعطَاف رَخْصٍ كحيل الطرف ذي عنقٍ طويلِ
ترى ماء الشباب بوجنتيه يلوحُ كرونق السيف الصقِيلِ
يحنُ إلى مطرفا لشكلي ويُكثرُ لي الزيارة بالأصيلِ
أتى يوما إليَّ بزقِّ خمرٍ شمولِ الرِّيح كالمِسك الفتيلِ
ليشربها معي ويبيتَ عندي فيثبت بيننا وُدُّ الخليلِ
فقلت حماقة مني ونُوْكاً فديتك لستُ من أهل الشمولِ
فأيةُ غِرَّةٍ سبحانَ ربي لو أنني كنتُ من أهل العقولِ

وعاد من عنده بذخائر ملوكية." [13]

بلاده. انظر: المقري، نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، تحقيق/ إحسان عباس ، ج 1، بيروت 1968، ص 346. انظر أيضًا: إسمت غنيم، الإمبراطورية البيزنطية وكريت الإسلامية، الإسكندرية 1983، ص 122–126؛ ليفي بروفنسال، الإسلام في المغرب والأندلس، ص 104 وما بعدها؛ أ. فازلييف، العرب والروم، ترجمة/ محمد عبد الهادي شعيرة، مراجعة/ فؤاد حسنين علي، القاهرة د.ت.، ص 165؛ Cardoso, *Diplomacy and oriental influence in the court of Cordoba*, 36 ff.

جدير بالذكر أن الإمبراطور البيزنطي ثيوفيلوس كان قد أرسل سفارة إلى الملك لويس التقي، ملك الفرنجة، في إنجلهايم في 18 مايو سنة 839م، أي قبل سفارته إلى قرطبة بوقت يسير. وكان على رأس هذه السفارة ثيودوسيوس، مطران خلقدونية والاسباثاريوس ثيوفانيس. وكان غرض هذه السفارة توثيق عرى الصداقة والصلح بين العاهلين الفرنجي والبيزنطي، والوقوف معاً في وجه هجمات قراصنة البحر. وربما كان هذا بغرض تحييد الفرنجة عن الصراع البيزنطي–العباسي في حوض البحر المتوسط. Cf. *The Annals of Saint Bertin*, trans. J. Nelson, Manchester, 1991, 44 . also Cardoso, *Diplomacy and oriental influence in the court of Cordoba*, 52.

[12] انظر أيضاً: المقري، نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، ج 2، ص 258؛ ليفي بروفنسال، الإسلام في المغرب والأندلس، ص 108–110.

[13] انظر القصيدة كاملة عند: شعبان محمد مرسي، "قراءة في شعر يحي بن حكم الغزال"، ص 179-180.

ويضيف الحُميدي عنه قائلاً:[14] "رئيس، كثير القول، مطبوع النظم في الحكم والجد والهزل، وهو مع ذلك جليل في نفسه وعلمه، ومنزلته عند أمراء بلده. أرسله بعض ملوك بني أمية بالأندلس رسولاً إلى ملك الروم، وفي ذلك يقول عند ركوبه البحر (مداعباً رفيقه في الترحال):[15]

قال لي يحي وصـــرنا بين موج كالجـــبالِ
وتولتـــنا عصـــوف من جنوب وشمـــالِ
شقت القلعـين وأنـــبت ت عرى تلك الحبالِ
وتمطى ملك الموت إلينا عـــن حيـــــالِ
لم يكـن للقـوم فـــينا يا رفيقي رأس مـــالِ

وشعره كثير مجموع، جمعه حبيب بن أحمد.[16]وقال: إن مولده سنة ست وخمسين ومائة، في إمارة عبد الرحمن بن معاوية (172–138هـ)، وعاش باقي إمارته، وإمارة هشام، وإمارة الحكم، وإمارة عبد الرحمن (176–238هـ)، ومات في إمارة الأمير محمد (238–273هـ) سنة خمسين ومائتين، وهو ابن أربع وتسعين سنة."[17]

---

[14] الحُميدي، جذوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس، تحقيق/ إبراهيم الإبياري، ج2، القاهرة–بيروت 1989، ص 597 وما بعدها.

[15] انظر أيضا: المقري، نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، ج 2، ص 259؛ أسامة اختيار، "بنية المشهد الحكائي في شعر يحي بن حكم الغزال"، ص 18. وقد ذكرت هذه الأبيات أيضاً عند سفر الغزال إلى بلاد المجوس.

[16] انظر: ديوان يحي بن حكم الغزال، جمع وتحقيق/ محمد رضوان الداية، بيروت–دمشق 1992؛ أبي منصور عبد الملك الثعالبي النيسابوري، يتمية الدهر في محاسن أهل العصر، تحقيق/ مفيد محمد قميحة، بيروت 1983، ج2، ص 64؛ أبي عمر يوسف بن عبد الله النمري القرطبي، بهجة المجالس وأنس المجالس وشحذ الذاهن والهاجس، تحقيق/ محمد مرسي الخولي، بيروت د.ت.، ج2، ص 228 وغيرهم من المصادر.

[17] الحُميدي، جذوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس، ج2، ص 598؛ المقري، نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، ج 2، ص 257، 260؛ أسامة اختيار، "بنية المشهد الحكائي في شعر يحي بن حكم الغزال"، مجلة جامعة دمشق، مج 27، عدد 3–4(2011)، ص 13؛ عبد الرحمن علي الحجي، العلاقات الدبلوماسية بين الأندلس وبيزنطة حتى القرن الرابع الهجري، أبو ظبي 2003، ص 52.

كان الغزال مثقفاً ثقافة واسعة، وأضاف إلى معرفته المتوقعة في العلوم النقلية معرفة بأشياء من العلوم العقلية، مما يدخل في علوم الأوائل. وكان يحفظ القرآن، ويحسن التفسير، ويروي الحديث، ويتقن الفقه، وهو متعمق في الفلسفة والحساب والفلك والتنجيم، وكان متبحراً في اللغة وآدابها، حافظًا لكثير من الشعر القديم، ويظهر من شعره الباقي تأثره بشعراء العصر العباسي مثل أبي نواس، وأبي حكيمة وغيرهم.[18] فقد وصفه المقري بالعراف لمعرفته بعلم النجوم؛[19]وفي شعره الباقي ما يشير إلى ذلك. ويضاف إلى هذه الأوصاف أنه كان متلافاً قليل الاحتراز، على الأقل في سنين شبابه الأولى. فذات يوم مدح الأمير عبد الرحمن وطلب عملاً، فولاه قبض الأعشار ببلاط مروان واختزانها في الأهراء.[20]

قال ابن دحية (ت 1235م):[21] فنفق الطعام في ذلك العام، وسما السعر بالقحط سمواً كثيراً، فوضع يده في البيع حتى أتى على ما كان عنده في الأهراء. ثم إنه نزل الغيث ورخص الطعام. فأعلم السلطان بما صنع الغزال من البيع، فأنكره وقال: إنما تعد الأعشار لنفقات الجند والحاجة غليها في الجهد، فماذا صنع الخبيث؟ خذوه بأداء ما باع من أثمانها، واشتروا به طعامًا واصرفوه في الأهراء إلى وقت الحاجة إليه. فلما طلب منه ثمن ما باع أبى من ذلك، وقال: إنما أشتري لكم من الطعام عدد ما بعت من الأمداد؛ وبين العددين بون كثير نحو ثلاثين ألفًا. فأعلم السلطان بامتناعه من الأداء، وبما ذهب إليه من شراء مثل ما باع. فأمر بسجنه، وحمله إليه في الكبل، فسيق منها إلى قرطبة وسجن بها، فصنع هذا القصيد:[22]

بعضَ تصابيكَ على زينبِ لا خَيْرَ في الصَّبْوةِ للأَشْيبِ

ورفعه إليه. فلما قريء شعره أعجب به، وأعجب الحاضرون، وقال له بعضهم: لقد أنصفك الغزال في قوله:

---

[18] شعبان محمد مرسي، "قراءة في شعر يحي بن حكم الغزال"، ص 169.

[19] المقري، نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، ج 2، ص 254.

[20] ديوان يحي بن حكم الغزال، ص 10.

[21] ابن دحية، المطرب من أشعار أهل المغرب، ج 1، ص 136.

[22] ديوان يحي بن حكم الغزال، ص 39.

قد أحسن الله إلينا مَعا أن كان رأسُ المالِ لم يذهبِ

فإنه لو ذهب أيها الإمام، اي ذمة كانت تفي به للغزال، مع ما هو عليه من الإنهماك [في الشهوات] وقلة المال! فضحك الإمام وأمر بإطلاقه.[23]

ويتوجه تفسير الخبر على قلة الإحتراز، والإتلاف، أكثر مما يتوجه إلى صفات أخرى من الاحتجان والجشع؛ لأن مجريات حياة الغزال وأخباره فيما بعد لا تدل على ذلك. وفي أخباره، وفي شعره أيضا، معلومات يمكن الاستفادة منها في رسم صورة للرجل، وفي تقويمه من حيث سلوكه، وقيمه التي يأخذ بها، وفي معاييره التي يقيس بها، ويصدر عنها في معاملة الناس، والإنخراط في المجتمع.[24]

ويفسر لنا المقري سبب تكنيه بالغزال، ومرد ذلك أنه كان مليح الشكل،[25] وسيماً في شبابه وشيخوخته وكهولته.[26]ويضيف المؤرخ ألان Allen أن الغزال كانت لديه رجاحة العقل، وسرعة البديهة، ومهارة الجواب، وشجاعة ومثابرة، ويعرف الدخول والخروج من كل باب.[27]

كما كان الغزال جريئاً، صريحاً، يقول ما يعتقده، ويصرح بما يجول في نفسه، ومن هنا برز شعر الهجاء والتعريض والنقد الاجتماعي عنده؛[28] حتى وصفه ابن حيان القرطبي (ت 469هـ/1076م) بقوله: "الغزال منتهك الأعراض، ومخزي الرجال".[29]

---

[23] ابن دحية، المطرب من أشعار أهل المغرب، ج 1، ص 136؛ شوقي ضيف، عصر الإمارات: الأندلس، ص 230–231؛ شعبان محمد مرسي، "قراءة في شعر يحي بن حكم الغزال"، ص 169–170.

[24] ديوان يحي بن حكم الغزال، ص 11–12.

[25] المقري، نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، ج 2، ص 254.

[26] ديوان يحي بن حكم الغزال، ص 9.

[27] Allen, *The Poet and the Spae-Wife*, 19; ديوان يحي بن حكم الغزال، ص 10.

[28] ديوان يحي بن حكم الغزال، ص 10.

[29] ابن حيان القرطبي، المقتبس من أنباء أهل الأندلس، تحقيق/ محمود علي مكي، القاهرة 1994، ص 200؛ أسامة اختيار، "بنية المشهد الحكائي في شعر يحي بن حكم الغزال"، ص 12.

واعتبره أ.د. شوقي ضيف من كبار الهجائيين في الأندلس؛[30] حيث كان صريحاً في هجائه لكل من لا يجده مستقيماً في أحواله وأحكامه من قضاة قرطبة، بل وحتى زرياب المغني لم يسلم من هجائه.[31] وقال عنه أ.د. إحسان عباس: "شاعر الأندلس المقدم–في نظري–على جميع الشعراء في هذه الفترة...أقرب إلى الطبع، وأبعد عن التكلف، وأعمق تجربة، وأنفذ نظراً، وأغور حكمة".[32]

وحري بنا الاعتماد على شعر الغزال، الذي يصور كثيراً من مراحل شبابه وحماسته، والغزل الرقيق الذي تشهد فيه دقة الإحساس بالجمال، والمواقف الحادة الجادة، وتشعر بدخول عنصر الزمن، فتتبلور قلة مبالاة أيام الشباب، وقلة احترازه على شكل حكمة بسيطة، صادرة عن تجارب الحياة.

وتظهر واقعية الغزال المحبوكة من الملاحظات السابقة في نظرته إلى الحياة وعدم اكتراثه بمظاهرها. وفي نظرته إلى المرأة نقد لاذع تراه مفرقا في قصائد ديوانه. وطالت أيام شيخوخته، وأبلاه الزمان، فمزج من دعابته وواقعيته قصائد ومقطعات في الحياة والموت، وفي علاقة الرجل المتقدم في السن بالمرأة، ونظرتها إلى العجوز،[33] ووازن بين إقبال المرأة على الشباب لشبابه وعلى الشيخ العجوز لماله، في مفارقات ضاحكة مؤثرة في وقت واحد.[34]

---

[30] شوقي ضيف، عصر الإمارات: الأندلس، ص 230.

[31] عن تحكم قضاة قرطبة في بلاط الأمير عبد الرحمن الأوسط، وتسلط الجارية طروب عليه وولعه بها، وارتفاع مكانة زرياب في القصر انظر: المقري، نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، ج 2، ص 260–261، 349–350. انظر أيضا: رينهرت دوزي، المسلمون في الأندلس، ترجمة/ حسن حبشي، القاهرة 1994، ج1، ص 75—79.

[32] إحسان عباس، تاريخ الأدب الأندلسي، عصر سيادة قرطبة، بيروت 1985، ص 165.

[33] راجع في ذلك قصيدته البديعة إلى سيدة تدعى أم عمر، والتي تعبر عن حالة وجدانية في سن الكهولة، في: القرطبي، بهجة المجالس وأنس المُجالس وشحذ الذاهن والهاجس، ج2، ص 228؛ أسامة اختيار، "بنية المشهد الحكائي في شعر يحي بن حكم الغزال"، ص 17.

[34] راجع: ديوان يحي بن حكم الغزال، ص21–22، وما بعدهما.

كما كان الغزال أيضاً من يتسمون بالدعابة والظرف، فقد دخل على الأمير عبد الرحمن الأوسط ذات يوم، فقال الأمير [من الكامل]: جاء الغزال بحسنهِ وجمالهِ. فقال له الوزير: أجِزْ ما بدأ به الأمير، فقال الغزال:[35]

قال الأمـــيرُ مُداعبـــا بمقـــالِهِ جاء الغزال بحسنهِ وجمـالهِ
أين الجمالُ من أمريءٍ أرْبَى عَـلَى متعدد السبعينَ من أحـوالهِ
وهلِ الجمالُ له؟ الجَمالُ من أمريء ألقاهُ رَيبُ الدهرِ في أغلالـهِ
وأعادهُ مـــن بعـــدِ جِدَّتهِ بِلَّـــى وأحالَ رونَقَ وجهِهِ عن حالهِ

ومما يدل على بعض صفاته إجاباته السريعة، الذكية، التي تتسم بالدعابة، على تساؤلات ملكة المجوس (بلاد الدانمارك)، وكانت تدعى نُود، فعندما سألته يومًا عن سنه، وكان في الخمسين من عمره،[36] قال لها مداعبًا عشرون؛ وعندما سألته عن سر المشيب الذي يزين رأسه، رد عليها قائلاً: ألم ترى قط مُهرًا ينتج وهو أشهب؟ فأعجبت بقوله، فقال في ذلك:[37]

كُلِّفْتَ يا قلبي هـوى متعـــبا غالبت منه الضَّيغَم الأغـلبا
إني تعلقـــتُ مجـــــوسـية تأبى لشمس الحسن أن تغربا
أقصى بلاد الله في حيـث لا يُلفي غليه ذاهـــــبٌ مذهــبا
يا نُود يا رُودَ الشبـاب التـــي تُطْلِـــعُ من أزرارها الكـــوكبا
يا بأبي الشخصَ الذي لا أرى أحلـــى على قلبـي، ولا أعذبا
إن قلت يومًا إنَّ عينـــي رأت مُشْبهه لـــم أعْـدُ أن أكـذبا

---

[35] البيان المغرب في اختصار أخبار ملوك الأندلس والمغرب، ج2، ص 108. انظر أيضًا: أسامة اختيار، "بنية المشهد الحكائي في شعر يحي بن حكم الغزال"، ص 16؛ شعبان محمد مرسي، "قراءة في شعر يحي بن حكم الغزال"، ص 168.

[36] عبد الرحمن علي الحجي، العلاقات الدبلوماسية الأندلسية مع غرب أوروبا ، ص 237؛ شعبان محمد مرسي، "قراءة في شعر يحي بن حكم الغزال"، ص 172.

[37] ابن دحية، المطرب من أشعار أهل المغرب، ج 1، ص 144؛ المقري، نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، ج 2، ص 257–258؛ ديوان يحي بن حكم الغزال، ص 31.

قالت: أرى فَـوْدَيْه قد نـوَّرا دُعابـة توجـب أن أدعـبا
قلت لهـا: ما بـالُهُ؟ إنـهُ قد ينتـج المـهْرُ كذا أشـهبا
فاستضحكت عُجْباً بقولي لها وإنما قُلـتُ لكـي تعجـبا

وقد فصل ابن دحية القول في شرح تلك الأبيات الرقيقة، التي يغازل بها يحي الغزال الملكة نُود، والتي تعكس ولع الغزال وتعلقه بها.[38] ولما فهمها الترجمان ما أنشده الغزال من الشعر ضحكت، وأمرته أن يخضب شعره، ففعل، وأقبل عليها وقد اختضب، قائلاً لها: [39]

بَكرَتْ تُحسن لي سـواد خضـابي فكأن ذاك أعادني لشبـابيِ
ما الشيب عندي والخضاب لواصف إلا كشمس جُللت بضبـابِ
تخفى قليلا ثم يقشعـها الصـبا فيصيرُ ما سُترت به لـذهابِ
لا تُنكري وضح المشـيب فإنـما هو زهرة الأفهـام والألـبابِ
فلدي ما تهوين من شـأن الصـبا وطُـلاوة الأخـلاق والآدابِ

وتعكس الأبيات السابقة خفة دم يحي الغزال وتمتعه بروح الدعابة، وسرعة بديهته، كما تبين لنا أنه ربما وقع في غرام ملكة المجوس، التي غازلها قائلاً أن لديه ما تهوى من شأن الشباب، بالإضافة إلى تمتعه بالأخلاق والآداب.

يذكر الغزال أن الملكة نُود قد حببت له الخضاب، وذكرت له محاسنه، ولكنه لم يقتنع بهذا التحسين، لأنه إن كان يغير اللون الأبيض، فهل يعيد له شبابه الذي ولى لا يمكن، فالشباب إذا ولى لا يعود، ويصور الغزال الشيب والخضاب بشمس حجبها الغمام، فهي تستتر قليلا، وسرعان ما تأتي الرياح فتزيح السحاب، وتبدو الشمس واضحة، ثم يتجه

---

[38] رود الشباب أي الجارية الناعمة الجسم، وقد رؤد شبابها. وفودية في البيت الرابع هي ما يلي الذنين من الشعر. (عن شرح الأبيات وجمالها راجع: ابن دحية، المطرب من أشعار أهل المغرب، ج 1، ص 145.) ورود ليس اسم علم هنا كما فهمه البعض من المؤرخين الأوروبيين الذين تناولوا إشكالية اسم ملكة المجوس. انظر: Pons-Sanz, "Whom did Al-Ghazāl Meet? an Exchange of Embassies between Arabs from Al-Andalus and the Vikings," 11.

[39] ابن دحية، المطرب من أشعار أهل المغرب، ج 1، ص 146؛ المقري، نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، ج 2، ص 258؛ ديوان يحي بن حكم الغزال، ص 38–39.

إلى نود فينصحها بعدم إنكار بياض الرأس، لأنه علامة على النضج العقلي، وإشارة إلى تجارب الزمن التي تحنك الإنسان، وتجعله خبيراً، وهو وإن كان وخطه الشيب فمازال قادرا على الحب، وعلاوة على ذلك لديه أخلاق كريمة، وثقافة واسعة، وموهبة شعرية وأدبية عالية، تسعد من يجالسه أو يخالطه.[40]

وهنا، نجد أنفسنا أمام أمرين إما أن أسلوب المداعبة هذا الناعم في التعامل مع النساء ليحي الغزال كان وسيلة من وسائل الدبلوماسية، أو أنه بالفعل من سمات الشاعر الذي وقع أسيراً لجمال نُود وغرامها. ولكي نجزم في الأمر لابد لنا من تتبع مسلكه في التعامل مع ملكة بيزنطة أيضاً، الملكة ثيودورا زوجة الإمبراطور البيزنطي ثيوفيلوس، عندما ذهب في سفارته إلى القسطنطينية، حيث تقابل مع ثيودورا، وهي الزيارة التي ربما أكسبته خبرة في كيفية كسب ود المليكات قبل أن يذهب في سفارة تالية إلى بلاد المجوس.[41]

يشير المقري إلى تفاصيل العلاقة بين يحي الغزال والأسرة المالكة البيزنطية، ولاسيما الملكة ثيودورا، خلال فترة إقامته في القسطنطينية، والتي تعكس إعجابه الشديد بملكة بيزنطة وحسنها، وجمال وجهها.

فذات يوم كان الغزال جالساً مع الإمبراطور البيزنطي ثيوفيلوس، فإذا بزوجة الملك قد خرجت وعليها زينتها، وهي كالشمس الطالعة حسناً، فجعل الغزال لا يميل طرفه عنها، وجعل الملك يحدثه، وهو لاه عن حديثه، فأنكر ذلك عليه، وأمر الترجمان بسؤاله. فقال له: عرفه أني قد بهرني من حسن هذه الملكة ما قطعني عن حديثه، فإني لم أر قط مثلها، وأخذ في وصفها والتعجب من جمالها، وأنها شوقته إلى الحور العين.

فلما ذكر الترجمان ذلك للملك، تزايدت حظوته عنده، وسُرت الملكة بقوله، وأمرت الترجمان أن يسأله عن السبب الذي دعا المسلمين إلى الختان، وتجشم المكروه فيه وتغيير خلق الله، مع خلوه من الفائدة. فقال للترجمان عرفها أن فيه أكبر فائدة، وذلك أن

---

[40] شعبان محمد مرسي، "قراءة في شعر يحي بن حكم الغزال"، ص 185-186.

[41] عن سفارة يحي الغزال إلى القسطنطينية انظر: عبد الرحمن علي الحجي، العلاقات الدبلوماسية بين الأندلس وبيزنطة، ص 54-66؛ محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ج1، ص 282-283.

الغصن إذا زُبِر قوى واشتد وغلظ. وما دام لا يُفعل به ذلك لا يزال رقيقاً ضعيفاً، فضحكت وفطنت لتعريضه. [42]

وهكذا، تشير الرواية في سطورها الأخيرة إلى أنه كانت هناك مساحة حرة من الكلام بين ملكة بيزنطة ويحيى الغزال، بعد أن غازلها بشعره ممتدحاً جمالها واستمال مشاعرها؛ ومن ثم أصبحت العلاقة بينهما فترة إقامته في القسطنطينية تسمح بالحديث في أمور محددة، ربما كان الغرض منها مداعبة الغزال، لا بهدف التعرف على الإسلام، كما يظن البعض؛[43] ويؤكد ذلك رده الصريح للفوائد الجنسية من اختتان الرجل، حسب قوله، وهو موضوع ليس محل بحثنا. [44]

---

[42] المقري، نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، ج 2، ص 258–259؛ عبد الرحمن علي الحجي، العلاقات الدبلوماسية بين الأندلس وبيزنطة، ص 62.

[43] للتعرف على بواكير معرفة البيزنطيين بالإسلام انظر: طارق منصور، المسلمون في الفكر المسيحي، القاهرة 2008؛ طارق منصور ونهي سالم، "ترجمة القرآن الكريم إلى اليونانية في القرن التاسع الميلادي: الجزء الثلاثون نموذجا"، حولية التاريخ الإسلامي والوسيط ، عدد 8 (2013)؛ طارق منصور، الفتوحات الإسلامية لبلاد الشام في ضوء حولية ثيوفانيس المعترف، دراسة في أيديولوجية المؤلف تجاه الإسلام، مجلة المؤرخ العربي، 14 (القاهرة 2006)؛ John Damascus, *De Haeresibus*, ed. J. P. Migne, *PG*, tome 94 (Paris n.d.), cols. 764-773; Bartholomeus of Edessa, Κατα Μωαμεδ, ed. J. P. Migne, *PG*, tome 104 (Paris n.d.), cols. 1448-1457; Bartholomeus of Edessa, Ελεχος Αγαρηνου, ed. J. P. Migne, *PG*, tome 104 (Paris n.d.), cols. 1384-1448; See also Adel-Théodore Khoury, *Les théologiens byzantins et Islam, texts et auteurs (VIII^e^-XIII^e^ s.)* (Paris 1969); D. J. Sahas, *John of Damascus on Islam, the "Heresy of the Ismaelites"* (Leiden 1972); Tarek M. Muhammad, The Byzantine Theologians on Muhammad and Zaynab b. Jahsh: Marriage or Adultery?," *Byzantinoslavica* 67 (2009), 139-160; Idem, "The Conversion from Islam to Christianity as Viewed by the Author of Digenes Akrites," *Collectania Christiana Orientalia* 7 (2010), 45-73; Idem, "*Alla Wa Koubar* in the Byzantine Conception", *Proceedings of the second international Conference "The World of Islam: History, Society and Culture, Moscow 28-30 October 2010. Pax Islamica* 8-9 (2012), 296-315; Idem, "The Concept of *al-Takbīr* in the Byzantine Theological Writings" *Byzantinoslavica* 72 (2014), 77-97; A. Abou-Seada, *Byzantium and Islam (9^th^ – 10^th^) A Historical Evaluation of the Role of Religion in Byzantine-Muslim Relations*, Ph.D. Dissertation (Birmingham 2000); Wolfgang Eichner, "Die Nachrichten über den Islam bei den Byzantinern", *Der Islam* 23 (1936), 133-162, 197-244; D. J.

وربما مضت العلاقة بين الغزال والأسرة البيزنطية المالكة لأبعد من ذلك، لاسيما بينه وبين ثيودورا، التي جاءته ذات ليل بابنها ميخائيل الثالث، وبزق خمر كي ينادمه ويبيت الفتى عنده، إلا أنه أبى، كما أسلفنا.[45]

وهنا يحدثنا الغزال أن الغلام جاءه يوماً حاملًا زجاجة خمر، يفوح شذاها كرائحة المسك الخالص، لكي يسقيه منها وتقوى الصلة بينهما، وعندما حضر كانت أمه معه، وهي تحب حديث الغزال، وتهوى مجالسته، وقد صورهما الشاعر بصورة الغزالة وابنها الغزال الصغير، وهي صورة كثيرة الدوران في شعر الحب . ومن حب الملكة لابنها أنها كانت توصي الشاعر به خيرًا، وتخاف عليه من البرد، ويتضح من الحديث أن الرحلة كانت في الشتاء، والدولة البيزنطية باردة في الشتاء، خاصة العاصمة القسطنطينية. فلما عرضت عليه الخمر ليدفئ جسده وينتعش أبى، وذكر أن هذا محرم في الإسلام، ويدل ذلك على أن الغزال كان متدينًا، لم يشرب الخمر قط، كما سيرد عند وصف الخمر في بعض قصائده.[46]

ويبدأ الغزال بوصف جمال ولي العهد البيزنطي، فيذكر أنه شاب جميل ناعم، يبدو عليه أثر النعمة والترف، وأن عينه كحيلة كحلاً طبيعياً، وأن عنقه طويل يزيده حسنا. ثم يصف وجهه، فهو صاف لامع مشرق، فيه حيوية الشباب ونضرته، كأنه سيف مجلو نظيف، ويبين أصله، فهو من أبناء القياصرة العظماء، سليل الأسرة المالكة من ناحية أبيه ومن ناحية أمه، فهو مؤهل من الجانبين وليس هجينا، ويرسم صورة لبشرة هذا الغلام، فجلده ناصع كأنه الذهب الخالص والفضة السبيكة النقية. وأما أثره على الغزال فكان كبيراً، إذ أخذ بجماله، وظل يكرر فيه نظره، ويتملى حسنه، وهو يظن أن جسده من العاج الرائع . ويحدد لنا طوله بطريقة شعرية لطيفة، فهو ربعة، لا طويل ولا قصير، مما يحملك على إجلاله، فهو معتدل القامة، وهو يشبه غصن البان قرب النهر، وهذه صورة واردة في الشعر العربي القديم كثيراً، ولكنه وضعها وضعًا جيدًا، فأثرت في القارئ.

Constantelos, "The Moslem Conquests of the Near East as Revealed in the Greek Sources of the Seventh and Eighth Centuries", *Byz.* 42 (1972), 328-333.

[44] Cardoso, *Diplomacy and oriental influence in the court of Cordoba*, 68.

[45] انظر الأبيات الواردة في ص 5 من البحث؛ Cardoso, *Diplomacy and oriental influence in the court of Cordoba*, 67-68.

[46] شعبان محمد مرسي، "قراءة في شعر يحي بن حكم الغزال"، ص 180.

ويوضح الغزال أن هذا الفتى كان ينظر إليه وهو مسرور، لأن شكله في زيه مختلف وطريقة كلامه مختلفة، فهو طريف من هذا الجانب، ولذا كان يكثر الجلوس مع الغزال، ويطيل الحديث معه، وهنا دليل على أن الغزال كان يجيب على أسئلة هذا الفتى جوابًا جذابًا، فكان حديثا كالقرى، وذكر أن أغلب اللقاءات كانت تتم بعد العصر، وقت الأصيل. [47]

وتشير قصيدة نظمها الغزال– لا نعرف المناسبة التي قيلت فيها– لكنها وردت عند المقري في وصفه لرحلة الغزال للقسطنطينية، إلى صورة من صور المرأة عند الغزال، لعل ذلك يساعدنا في الحكم على طبيعة وصله بمليكتي بيزنطة وبلاد المجوس. وأيما كانت فإن القصيدة التالية تعتبر غزل صريح في النساء ووصلهن، ويقول فيها: [48]

يا راجيا ود الغـــواني ضَلَـــةُ وفُؤادهُ كَـلِفٌ بهــن مُوكـــلُ
إن النساء لكالســـروج حقيقـــةٌ فالسرج سرجك ريثما لا تنزلُ
فإذا نزَلتَ فـإن غــيرك نـــازلٌ ذاك المكان وفاعل ما تفعلُ
أو منزل المجتاز أصبح غادياً عنه وينـزل بعده مــن يــنزلُ
أو كالثمار مباحـة أغصـــانُـها تدنو لأول مـن يمر فيــأكـلُ
أعط البيبة لا أبا لك حقـــهـا منهـا، فإن نعيمـــها متحــولُ
وإذا سلـبت ثيابهـــا لـم تنتفـــع عند النساء بكل ما تستــبدلُ

وفي الأبيات السابقة صورة تعبر عن نقد الغزال الاجتماعي للنساء، وهو رأي خاص، فالحسناوات في رأيه لا عهد لهن، فهن يتحولن سريعا، ويتغير مزاجهن، ولذلك ينصح الرجل الذي يهيم بالنساء الجميلات، بألا يعني بوصلهن، لأن العاشق لهن من لا عقل له، ثم يصور النساء بصورة السرج على ظهر الحصان أو الفرس، فهو خاص بالفارس طالما هو راكب عليه، وإذا نزل فإن غيره سيركب على السرج نفسه . والصورة توحي بأن المرأة سرعان ما تغير الرجل، وتصحب غيره، وإذا مات تزوجت آخر، وعلى الماضي

[47] شعبان محمد مرسي، "قراءة في شعر يحي بن حكم الغزال"، ص 180–181.

[48] المقري، نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، ج 2، ص 259.

السلام . وأتى الغزال بصورة تصويرية أخرى للمرأة فهي الثمار المباحة، فالنساء كالثمار المباحة يأكل منها من يمر بها . هذه الصور تدل على النظرة السلبية عند الغزال للنساء. وينهي الشاعر قطعته ببيتين يرشد فيها المتلقي إلى أن ينتهز فرصة الشبيبة أو الشباب فيمتع نفسه دون تعلق بالغواني، لأن محاسن هذه المدة ستمحى وتزول، وإذا ذهب الشباب لن يعود، وإذا ذهبت فتوته لن يستفيد من النساء بشيء مهما بذل من المال أو غيره، فالحسناوات لا يملن إلى العجائز أو الشيوخ. [49]

وبرغم صراحة مفردات الغزال في تصويره للنساء أو غزله لملكة بيزنطة، وفجاجة مقصده في الأبيات السالفة الذكر، إلا أننا سنرجئ الحكم قليلاً، حتى ننتهي من استعراض بقية تفاصيل سفارة شاعر الغرام إلى بلاط ملك المجوس. ليتبقى أمامنا السؤال المحوري الذي طرح من قبل:

هل كان أسلوب يحي الغزال الناعم الذي اتسم بالدعابة والنعومة في التعامل مع الملكات أثناء سفاراته وسيلة من وسائل الدبلوماسية، أم أنه بالفعل كان عاشقاً لجمالهن أو لنقل لجمال الأنثى بتعبير مطلق؟

إن الصور التي وصلتنا من خلال أشعار الغزال وغزله في الملكة نُود، ملكة الدانمارك، تعبر عن مدى الحب العميق الذي ملأ قلبه عندما رأى هذه الملكة الجميلة، وصور هذا الحب بالأسد الغضنفر الذي يغلب من تعرض له، ثم بين أن هذه المحبوبة مجوسية، وليست من بنات المسلمين، ورسم لها صورة فيها مبالغة شعرية رائعة، وهي شمس الحسن وشمس الجمال دائمة لا تأفل أبدًا، ولذا فهو مأخوذ بها، ثم أبان عن بعد بلادها، فهي في أقصى الشمال مسالكها وعرة، أو على حد المبالغة لا يجد لها السائر طريقاً، وهنا يشير من طرف خفي إلى ما لاقاه في رحلته إلى تلك البلاد عبر البحر ويناديها نداء تحبب، ويذكر اسمها، ويصفها بأنها أجمل البنات، ناعمة أسيلة، جميلة الصدر، كأن فيه كواكب منيرة لامعة، فهي أصل النور والحسن، فالكواكب تطلع منها.[50]

---

[49] شعبان محمد مرسي، "قراءة في شعر يحي بن حكم الغزال"، ص 208.

[50] شعبان محمد مرسي، "قراءة في شعر يحي بن حكم الغزال"، ص 173.

ويرى أ. شعبان مرسي أن يحي الغزال إنما قصد من شعره مع الملكة نود الدعابة والمزاح، لاسيما عندما قال لها أن المُهر يولد أشهبًا؛ وأن ذلك عبارة عن صورة غزلية تعتمد حيوية التعبير ويسره وسهولة اللغة وحسن الحوار.[51]

على أية حال، نعود للحديث عن سفارة الغزال إلى بلاد المجوس، التي كانت بمثابة موافقة على الصلح بين عبد الرحمن الأوسط أمير الأندلس وملك المجوس، الذي كانت سفنه قد أغارت على شواطئ الأندلس مدمرة للبلاد ومهلكة للعباد، غير أن الهزيمة كانت من نصيبها في نهاية المطاف على أيدي المسلمين، وعليها طلب ملك المجوس الصلح والمهادنة من الأمير عبد الرحمن الثاني.[52] فقد أغار المجوس، أو الأردمانيين، كما يسميهم بعض الكتاب العرب، في ثمانين سفينة على الساحل الغربي لبلاد الأندلس،[53] وكان أول نزولهم بمدينة لشبونة Lisbon في ذي الحجة من عام 229هـ/اغسطس–سبتمبر 844م، واشتبكوا مع سكانها، ثم تركوها وتوجهوا إلى شَذُونة Sidona، ثم إلى قَادس Cadiz، ثم ساروا إلى أشبيلية Seville، ونزلوا بموضع يسمى قودرة، على بعد اثنى عشر ميلاً من أشبيلية، فخرج إليهم جمع من المسلمين، لاقوهم في الثاني عشر من محرم عام 230هـ/30 سبتمبر 844، فانهزم المسلمون أمامهم. وواصلت قوات المجوس تقدمها في البلاد حتى وصلوا إلى قرية تدعى طلياطة Tablata، على بعد ميلين من أشبيلية، وقاتلوا أهلها في الرابع عشر من محرم لعام 230هـ/أكتوبر 844م، وحلت الهزيمة ثانية بالمسلمين؛ وكثر القتل والأسر فيهم، ولم يرفع هؤلاء الغزاة سيوفهم لا عن العباد ولا الدواب. وأخيراً وصل الغزاة إلى أشبيلية، فاحتلوا بها احتلالاً، ونازلوها نزالاً،

---

[51] نفس المرجع والصفحة.

[52] محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ج1، ص 284.

[53] يذكر الزهري أن المجوس اعتادوا على مهاجمة أهل الأندلس فيما لا يقل عن أربعين مركباً في الغارة الواحدة وقد تصل إلى مائة مركب، ويغلبون كل من لقوه في البحر ويسبونهم ويأسرونهم. وكانت تلك المراكب يطلق عليها أهل الأندلس اسم قراقير، وهي مراكب كبار بقلوع مربعة، تجري إلى أمامها وإلى خلفها. وكانت للمجوس شدة وباس وقوة وجلد على ركوب البحر، وكانوا متى ما خرجوا خلت منهم سواحل البحر مخافة منهم. وكانوا لا يخرجون إلا على رأس ستة أعاوم أو سبعة. راجع: أبي عبد الله محمد بن أبي بكر الزهري، كتاب الجغرافية، تحقيق محمد حاج صادق، القاهرة د.ت.، ص 92؛ Christys, "The Vikings in the South through Arab eyes", 3-4.

إلى أن دخلوها قسراً، واستأصلوا أهلها قتلاً وأسراً. وبقوا سبعة أيام، يسقون أهلها كأس الحِمام. وهنا وجه الأمير عبد الرحمن الثاني قواده وعلى رأسهم قائده ابن رستم، الذي نصب المنجنيقات عليهم، ورماهم بالنفط، وقاتلهم وقاتلوه، حتى أظهره الله عليهم، وقتل منهم نحو خمسمائة مجوسي، وأصاب منهم أربعة مراكب بما فيها، حيث أمر بإحراقها بعد بيع ما فيها من الفيء. ثم كانت الوقعة الكبرى عليهم بقرية طلياطة يوم 25 صفر لعام 230هـ/أول أكتوبر 844م، حيث قتل منهم خلقاً كثيراً وأحرق لهم ثلاثون مركباً، وعلق من المجوس بأشبيلية عدداً كبيراً، ورفع منهم في جذوع النخل. وهنا فر المجوس بما تبقى لهم عائدين إلى بلادهم، مارين بنبله Niebla ثم لشبونة.[54]

وعلى أثر هذا الانتصار الذي أحرزه الأمير عبد الرحمن الثاني على قوات المجوس، وإرساله الكتب إلى نواحي دار الإسلام المتباينة يبشر المسلمين فيها بفتح الله عليهم ونصره على المجوس،[55] نقف على سفارة أتت من ملك المجوس تطلب الصلح والمهادنة معه، والتي رد عليها الأمير الأموي بالموافقة على الصلح بينه وبين ملك المجوس، فأرسل الشاعر يحي الغزال في سفارة إليه، كما سنرى مفصلًا.[56] ومن خلال تفاصيل تلك السفارة سنقف على مسلك يحي الغزال وبراعته الدبلوماسية مع ملك الدانمارك وزوجته نُود خلال إقامته هناك، حيث يصف لنا ابن دحية (مصدرنا الأكثر تفصيلاً) ما يلي:

---

[54] انظر: ابن عذارى المراكشي، البيان المغرب في أخبار المغرب، ج 2 ، ص 101- 103؛ ابن دحية، المطرب من أشعار أهل المغرب، ج 1، ص 138-139؛ ابن القوطية، كتاب تاريخ إفتتاح الأندلس، ص 82-83؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج6، ص 93-94، 100؛ اليعقوبي، كتاب البلدان، ص 19؛ إسمت غنيم، كريت الإسلامية، ص 127-131؛ ليفي بروفنسال، الإسلام في المغرب والأندلس، ص 111-112؛ عبد الرحمن علي الحجي، العلاقات الدبلوماسية الأندلسية مع غرب أوروبا، ص 226-229; Christys, "The Vikings in the South through Arab eyes," pp. 2-3; N. Price, "The Vikings in Spain, North Africa and the Mediterranean," in: (eds.) S. Brink and N. Price, *The Viking World*, Oxon-New York 2008, 464-465; Pons-Sanz, "Whom did Al-Ghazāl Meet? an Exchange of Embassies between Arabs from Al-Andalus and the Vikings," 5; Cardoso, *Diplomacy and oriental influence in the court of Cordoba*, 74.

[55] ابن عذارى المراكشي، البيان المغرب في أخبار المغرب، ج 2 ، ص 103.

[56] Pons-Sanz, "Whom did Al-Ghazāl Meet? an Exchange of Embassies between Arabs from Al-Andalus and the Vikings," 6.

"ولما وفد على السلطان عبد الرحمن رسل ملك المجوس تطلب الصلح بعد خروجهم من إشبيلية، وإيقاعهم بجهاتها ثم هزيمتهم بها، وقتل قائد الأسطول فيها، رأى أن يراجعهم بقبول ذلك؛ فأمر الغزال أن يمشي في رسالته مع رسل ملكهم، لما كان الغزال عليه من حدة الخاطر، وبديهة الرأي، وحسن الجواب والنجدة والإقدام والدخول والخروج من كل باب، وصحبته يحيى بن حبيب. فنهض إلى مدينة شِلْب Silves، وقد أنشيء لهما مركباً حسناً كامل الآلة، وروجع ملك المجوس على رسالته وكوفئ على هديته، ومشى رسول ملكهم في مركبهم الذي جاءوا فيه مع مركب الغزال، فلما حاذوا الطرف الأعظم، الداخل في البحر، الذي هو حد الأندلس في آخر الغرب، وهو الجبل المعروف بألوية، هاج عليهم البحر، وعصفت بهم ريح شديدة وحصلوا في الحد الذي وصف الغزال...".[57]

"ثم إن الغزال سلم من هول تلك البحار، وركوب الأخطار، ووصل أول بلاد المجوس إلى جزيرة من جزائرها فأقاموا فيها أيامًا وأصلحوا مراكبهم، وأجموا أنفسهم. وتقدم مركب المجوس إلى ملكهم، فأعمله بلحاق الرسل معهم، فسر بذلك ووجه فيهم، فمشوا إليه إلى مستقر ملكه، وهي جزيرة عظيمة في البحر المحيط، فيها مياه مطردة وجنات، وبينها وبين البر ثلاث مجار، وهي ثلاثمائة ميل، وفيها المجوس ما لا يحصى عددهم. وتقرب من تلك الجزيرة جزائر كثيرة منها صغار وكبار، أهلها كلهم مجوس، وما يليهم من البر أيضاً لهم مسيرة أيام، وهم مجوس، وهم اليوم على دين النصرانية، وقد تركوا عبادة النار، ودينهم الذي كانوا عليه، ورجعوا نصارى إلا أهل جزائر منقطعة لهم في البحر هم على دينهم الأول من عبادة النار، ونكاح الأم والأخت وغير ذلك من أصناف الشِّنار. وهؤلاء يقاتلونهم ويسبونهم. فأمر لهم الملك بمنزل حسن من منازلهم، وأخرج إليهم من يلقاهم، واحتفل المجوس لرؤيتهم. فرأوا العجب العجيب من أشكالهم وأزيائهم. ثم إنهم أنزلوا في كرامة، وأقاموا يومهم ذلك، واستدعاهم بعد يومين إلى رؤيته، فاشترط الغزال عليه ألا يسجد له، ولا يخرجهما عن شيء من سنتهما، فأجابهما إلى ذلك. فلما مشيا إليه قعد لهما في أحسن هيئة، وأمر بالمدخل الذي يفضي إليه، فضيق حتى لا يدخل عليه أحد إلا راكعاً، فلما وصل إليه جلس إلى الأرض وقدم رجليه وزحف على أليته زحفة، فلما جاز الباب استوى واقفا. والملك قد أعد له وأحفل في السلاح والزينة الكاملة. فما هاله ذلك ولا

[57] ابن دحية، المطرب من أشعار أهل المغرب، ج 1، ص 138–139.

ذعره، بل قام ماثلاً بين يديه. فقال: السلام عليك أيها الملك وعلى من ضمه مشهدك، والتحية الكريمة لك، ولا زلت تمتع بالعز والبقاء والكرامة الماضية بك إلى شرف الدنيا والآخرة، المتصلة بالدوام في جوار الحي القيوم، الذي كل شيء هالك إلا وجهه، له الحكم وإليه المرجع. ففسر له الترجمان ما قاله، فأعظم الكلام، وقال: هذا حكيم من حكماء القوم، وداهية من دهاتهم، وعجب جلوسه إلى الأرض وتقديمه رجليه في الدخول،[58] وقال: أردنا أن نذله، فقابل وجوهنا بنعليه! ولولا أنه رسول لأنكرنا ذلك عليه. ثم دفع إليه كتاب السلطان عبد الرحمن وقرئ عليه الكتاب، وفسر له. فاستحسنه وأخذه في يده، فرفعه ثم وضعه في حجره وأمر بالهدية ففتحت عيابها، ووقف على جميع ما اشتملت عليه من الثياب والأواني! فأعجب بها، وأمر بهم فانصرفوا إلى منزلهم ووسع الجراية عليهم."[59]

وتشير رواية ابن دحية، المصدر الأساسي لزيارة يحي الغزال لبلاد المجوس، إلى أن الغزال كان يجادل علماء المجوس ويحاجيهم طوال فترة إقامته هناك، ومن تصدى له من شجعانهم ثبته في القول، ولم يقدر على مجابهة الغزال. ولعل هذه المجادلات والمناظرات وصل أمرها إلى زوجة ملك المجوس، الملكة نُود، ومن ثم أرسلت في طلبه كي تراه وتلتقي معه، وتقف على حجته وبلاغته. [60]

ونعود لنتتبع وقائع اللقاء بين شاعرنا الغزال، وبين الملكة نُود، من خلال ما تركه لنا ابن دحية، حيث يقول: [61] "ولما سمعت امرأة ملك المجوس بذكر الغزال وجهت فيه لتراه، فلما دخل عليها سلم، ثم شخص فيها طويلاً ينظرها نظر المتعجب.

فقالت لترجمانها: سله عن إدمان نظره لماذا هو؟ ألفرط استحسان أم لضد ذلك؟

فقال: ما هو إلا أني لم أتوهم أن في العالم منظراً مثل هذا، وقد رأيت عند ملكنا نساء انتخبن له من جميع الأمم، فلم أر فيهن حسناً يشبه هذا.

---

[58] ينسب ليفي بروفنسال هذه الرواية ليحي الغزال عند زيارته لملك بيزنطة لا إلى ملك المجوس. راجع: ليفي بروفنسال، الإسلام في المغرب والأندلس، ص 106.

[59] ابن دحية، المطرب من أشعار أهل المغرب، ج 1، ص 140–141؛
Allen, *The Poet and the Spae-Wife*, 21.

[60] ابن دحية، المطرب من أشعار أهل المغرب، ج 1، ص 142.

[61] ابن دحية، المطرب من أشعار أهل المغرب، ج 1، ص 142–143.

فقالت لترجمانها: سله أمجد هو أم هازل؟

فقال: لا، بل مجد.

فقالت له: فليس في بلدهم إذاً جمال!

فقال الغزال: فاعرضوا علي من نسائكم حتى أقيسها بها. فوجهت الملكة في نساءٍ معلومات بالجمال فحضرن، فصعد فيهن وصوب، ثم قال: فيهن جمال وليس كجمال الملكة، لأن الحسن الذي لها والصفات المناسبة ليس يميزه كل أحد، وإنما يعني به الشعراء، وإن أحبت الملكة أن أصف حسنها وحسبها وعقلها في شعر يروى في جميع بلادنا فعلت ذلك. فسرت بذلك سروراً عظيماً وزهيت، وأمرت له بصلة، فامتنع من أخذها الغزال.

وقال: لا أفعل.

فقالت للترجمان: سله، لم لا يقبل صلتي؟ ألأنه حقرها أم لأنه حقرني؟ فسأله.

فقال الغزال: إن صلتها لجزيلة، وإن الأخذ منها لتشرف لأنها ملكة بنت ملك، ولكن كفاني من الصلة نظري إليها وإقبالها عليَّ، فحسبي بذلك صلة، وإنما أريد أن تصلني بالوصول إليها أبداً. فلما فسر لها الترجمان كلامه زادت منه سروراً وعجباً.

وقالت: تحمل صلته إليه، ومتى أحب أن يأتيني زائراً فلا يحجب، وله عندي من الكرامة والرحب والسعة. فشكرها الغزال، ودعا لها وانصرف." [62]

ويبدو أن صلات المحبة والمودة بين الغزال والملكة نُود قد توثقت، وسمت بمشاعرهما إلى أبلغ سمو، حتى أنها لم تعد تطيق صبراً من دون رؤيته بصورة يومية. ويصف لنا ابن دحية تلك المشاعر الرقيقة التي جمعت بينهما في وصف بديع حيث يقول:[63]

"أولعت زوجة ملك المجوس بالغزال فكانت لا تصبر عنه يوماً حتى توجه فيه، ويقيم عندها يحدثها بسير المسلمين وأخبارهم وبلادهم، وبمن يجاورهم من الأمم. فقلما انصرف يوماً قط من عندها إلا اتبعته هدية، تلطفه بها من ثياب أو طعام أو طيب؛ حتى شاع خبرها معه، وأنكره أصحابه، وحذر منه الغزال، فحذر وأغب زيارتها. فباحثته عن ذلك،

---

[62] ابن دحية، المطرب من أشعار أهل المغرب، ج 1، ص 142–143؛
Cardoso, *Diplomacy and oriental influence in the court of Cordoba*, 75.

[63] ابن دحية، المطرب من أشعار أهل المغرب، ج 1، ص 143.

فقال لها ما حذر منه. فضحكت وقالت له: ليس في ديننا نحن هذا، ولا عندنا غيرة، ولا نساؤنا مع رجالنا إلا باختيارهن، تقيم المرأة معه ما أحبت، وتفارقه إذا كرهت. وأما عادة المجوس قبل أن يصل غليهم دين رومة، فألا يمتنع أحد من النساء على أحد من الرجال، إلا ان يصحب الشريفة الوضيع، فتعير بذلك، ويحجره عليها أهلها. فلما سمع ذلك الغزال من قولها أنس إليه وعاد إلى استرساله."[64]

ثم انفصل الغزال عنهم، وصحبه الرسل إلى شَنتِ يعقوب بكتاب ملك المجوس إلى صاحبها، فأقام عنده مكرماً شهرين، حتى انقضى حجهم، فصدر إلى قشتالة مع الصادرين، ومنها خرج إلى طليطلة حتى لحق بحضرة السلطان عبد الرحمن، بعد انقضاء عشرين شهراً. [65]

ويعتقد أ. عبد الله عنان أن الكتاب الذي حمله يحي الغزال من ملك المجوس كان موجها لملك جليقية Galicia وليون Leon، وربما كان هذا كتاب توصية أو جواز مرور عبر بلاده وهم في طريقهم عائدين إلى الأندلس، حتى لا يمسهم ضر أثناء مرورهم ببلاده. وقد أخترق بالفعل الغزال مملكة ليون، وسار إلى طليطلة بسلام، ومنها إلى قرطبة؛ وكان هذا في سنة 232هـ/ آواخر 846م.[66] ومن المحتمل أن يكون رأي أ. عبد الله عنان صائباً، حيث إننا نعلم أن العلاقات بين الأمويين والفرنجة، منذ وطأ المسلمون أراضي الأندلس، كان يغلب عليها الطابع العدائي والغارات والغزوات المتبادلة بين الطرفين.[67]

---

[64] Allen, *The Poet and the Spae-Wife*, 23; Cardoso, *Diplomacy and oriental influence in the court of Cordoba*, 75;

عبد الرحمن علي الحجي، العلاقات الدبلوماسية الأندلسية مع غرب أوروبا، ص 236-237.

[65] ابن دحية، المطرب من أشعار أهل المغرب، ج 1، ص 146؛ إسمت غنيم، كريت الإسلامية، ص 132.

[66] محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ج1، ص 285.

[67] *Chronicon Moissiacense Maius: A Carolingian World Chronicle From Creation until the First Years of Louis the Pious*, On the basis of the MS. of the late Ir. J. M. J. G Kats, Prepared and revised by D. Claszen, Vols. I-II, MA Phil Thesis, Oegstgeest, 25 September 2012; El-Hajii, "Andalusian Diplomatic Relations with the Franks," 21-46, esp. 24, 27 ff.; König, "Charlemagne's "Jihād" Revisited," 3-40.

ولنعد إلى سيرة الغزال، ونتساءل أكان دبلوماسيًا بارعًا يجيد استخدام كافة أدوات الدبلوماسية ليحقق مأرب سفارته، أم أنه كان محباً للجمال لدرجة أنه وقع في هوى ملكة المجوس من النظرة الأولى، برغم أن مخافة الله كانت ثابتة في قلبه لم ينزعها عنه الهوى؟

إن المتأمل لوقائع السفارة سيجد أنه للوهلة الأولى لم يذهب للتفاوض مع ملك المجوس في شأن من الشؤون المشتركة بينه وبين الأمير عبد الرحمن الثاني؛ بل كانت السفارة لتسليم كتاب عبد الرحمن الثاني لملك المجوس، الذي يقبل فيه عرض ملك المجوس الصلح والمهادنة وكذلك تسليم هداياه له، وتوثيق عرى الوئام بين العاهلين. ومن ثم فإن دبلوماسية السفارة اتسمت بالهدوء السياسي والاتزان النفسي للسفير المسلم، ولم تخرج عن الإطار المحدد لها. وإن كان المؤرخ ن. برايس لا يستبعد أن يكون لتلك السفارة طابعاً تجاريًا أيضًا، حيث كانت الأندلس تستورد مماليكًا من اسكندينافيا لصالح الأمراء الأندلسيين، برغم قلة الشواهد الأثرية على هذا الطرح.[68]

من ناحية ثانية، فإن ورع وتقوى يحي الغزال كانا واضحين تمامًا في كل أسفاره. فعندما ذهب إلى القسطنطينية رفض تناول الخمر ورفض أن ينادمه ولى العهد البيزنطي، ميخائيل الثالث ابن ثيودورا وثيوفيلوس، أو يبيت معه ليلة في داره. ولعل كل ما طلبه من الإمبراطورة ثيودورا هو أن تُنعم عليه ببعض مما تتقلد، من أجل الإنفاق على بنياته، فما كان منها إلا أن انتزعت من جيدها قلادة در، لم يُرى أروع منها أو أغلى ثمنًا، فكان ذلك حسب قول البعض سببًا في غنى الغزال. كما أهداه الإمبراطور البيزنطي كأسًا مذهباً مرصعا بالأحجار الكريمة كان يشرب فيه مع الملك ذات يوم، بعد أن رأه المك يحتفظ بها لنفسه في كم ثوبه بعد أن فرغ من شرب الماء. ولما سأله عن سر ذلك، أجابه بأن تلك عادة السفراء فيهم، فأعطاه إياه.[69]

---

[68] Price, "The Vikings in Spain, North Africa and the Mediterranean," 465.

[69] عبد الرحمن علي الحجي، العلاقات الدبلوماسية بين الأندلس وبيزنطة، ص 58، 62–65؛ ليفي بروفنسال، الإسلام في المغرب والأندلس، ص 106–107؛ Pons-Sanz, "Whom did Al-Ghazāl Meet? an Exchange of Embassies between Arabs from Al-Andalus and the Vikings," 7.

وعلى الصعيد الآخر، عندما أهدته ملكة المجوس فتاة له، أبى أن يقبل الهدية حتى ظنت الملكة أنه يحتقر هديتها أو أنه يحتقرها هي نفسها، إلى أن شرح له هيامه بالنظر إليها، وقرب الوصال منها. ومع هذا أرسلت هديتها إليه، والتي حدد في حديثه إليها حدود تعامله معها، والتي لم تصل إلى أكثر من الإقبال عليه أو الإدبار، أو لنقل رعايته وتدبير شؤونه أثناء إقامته.

ومن الجلي أن يحي الغزال خاف على حياته، عندما تطايرت أخبار علاقته بالملكة نُود، ربما خشية أن يصيبه ملك المجوس بأذى من جراء تلك الأخبار؛ إلى أن طمئنته الملكة نُود، وأوضحت له أن الصداقة بين الرجل والمرأة في بلادها أمر معمول به، وتتوقف على رغبة المرأة في المقام الأول. وهو ما هدىء من أمره، وعاد الوصال بينه وبين نُود ثانية.

ولا شك، أن حلاوة لسان يحي الغزال ورشاقة عباراته وذكاءه ورجاحة عقله، وجمال وجهه، وكمال بنيته، كانوا سبباً في تعلق الملكة نُود به، والتي ربما كونها ملكة، لم تقابل في بلاطها من يجروء على أن يهيم بها ويطيل النظر إليها محملقاً فيها، بل متمادياً بمغازلتها. ومع هذا، تعكس الروايات التاريخية أن الغزال تعلق فؤاده بالملكة نُود، حتى مكث في بلادها شهوراً ليست بالقليلة، والتي لا يتناسب طولها مع الغرض من السفارة. وفي هذا يقول تمام بن علقمة:

"سمعت الغزال يحدث بهذا الحديث، فقلت له: وكان لها من الجمال في نفسها بعض هذه المنزلة التي صورت؟ فقال: وأبيك، لقد كانت فيها حلاوة، ولكني اجتلبت بهذا القول محبتها، ونلتُ منها فوق ما أردت".[70]

ولعل عبارة "نلت منها فوق ما أردت"، إنما تؤكد مقصد الغزال الدبلوماسي من مسلكه في مغازلة المليكات، حتى نال عطفهن وأخذ منهن ما يبتغيه سواء من إتمام سفارته أو من هدايا وعطايا؛ وهو نفس المسلك الذي فعله مع الإمبراطورة ثيودورا البيزنطية– كما سبق وأوضحنا– فأنعمت عليه بهدايا ثمينة أغنته، بعد عودته إلى الأندلس؛ وأتمت سفارته بنجاح.

---

[70] ابن دحية، المطرب من أشعار أهل المغرب، ج 1، ص 143.

وهناك جانب لا يجب أن نغفله في شخصية يحي الغزال، ألا وهو زهده وورعه، فمع انتقال يحي الغزال للعيش في المشرق الإسلامي، عاد بعدها إلى الأندلس وقد شارف على الستين من عمره، بعد أن أخذه الحنين إليها، حيث اكتسب زهدًا في الحياة، مما يؤكد النزعة الدينية عنده. وقد وصلتنا بعض أشعاره الدالة على زهدة منها: [71]

الناس خلـقٌ واحدٌ مُتشـــابــه لكنمَّا تتخـــالف الأَعمـــالُ
ويقالُ حقٌ في الرجال وباطـل أي أمرىء إلا وفيــه مَقـَــالُ
ولكل إنسانٍ بما فـــي نفســه مِن عَيبــِه عن غيره أشغـالُ
يستثقل اللـم الخفـيف لغــيره وعليه من أمـثال ذلك جـبالُ
ويَنام عن دُنياه نومـــةَ قَانـــع بنَعـــيمِ دُنيـــاه وذاك خَـــيالُ
ورأيتُ ألسنة الرجـال أفاعيـــاً طوراً تثـــور وتـــارة تغتـَـالُ
فإذا سلمتَ من المقَالة غير ما تَجني فأنت الأسعدُ المفضالُ

وختاماً، وبناءً على ما تم استخلاصه فإنه ربما كان يحيى الغزال محبًا للجمال، مولعاً به كسائر الشعراء، إلا أنه في نفس الوقت لم يُقدم على مخالفة الله بفعلٍ يتنافى مع تعاليم الإسلام، وظل حافظاً لنفسه في أسفاره، وكل ما كان يقوم به من مغازلة المليكات، سواء ثيودورا أم نُود، ما هو إلا ضرب من ضروب الشعراء في لحظة جموح عاطفي يتلظى فيها الشاعر بنار العشق والغرام، ليتمم بذلك أغراضه الشخصية وإتمام سفارته...حقا إنه شاعر الغرام.

[71] انظر: ابن دحية، المطرب من أشعار أهل المغرب، ج 1، ص 149-150.